التداولية بين اللسانيات والدراسات الأدبية

د . معمر حجيج
جامعة باتنة
الجزائر

نحاول في مستهل هذا البحث الكشف عن معاني مصطلح التداولية [1] الذي شاع في الدراسات الفلسفية والإبستمولوجية واللسانية والأسلوبية ، والنقدية بوصفه ترجمة للمصطلح الأجنبي"Pragmatique" إلى جانب ألفاظ أخرى مثل: "الذرائعية" [2] و"علم التخاطب"[3]، وقريب منه مصطلح"الإبلاغية" (Communication)[4] ؛فهو من هذا المنظور من المصطلحات المشتركة والمتشعبة في أكثر من حقل معرفي نظري وعملي.

1 ــ التداولية بين النظرية اللسانية والفكر الفلسفي:

1.1. التداولية و الفكر الفلسفي :

إن هذا المصطلح يطلق في الغالب على مجموعة من الفلسفات والمعارف " تشترك كلها في مبدإ عام وهو أن صحة الفكرة تعتمد على ما تؤديه ... من نفع ، أيا كان هذا النفع ، أو على ما تؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة في الحياة " [5] .

وقد جاء في قاموس المؤلفين والموضوعات الخاصة بالفلسفة "أن كلمة البراجماتية" ، أو التداولية استحدثها الفيلسوف الإمريكي .تشالز .ساندرز. بيرس[*] (1839-1914) ليعني بها نظرية دلائلية وضح معالمها بصفة خاصة في مقالين : الأول نشره سنة 1878 بعنوان كيف تجعل أفكارك واضحة .؟ (How to make our ideas clear ؟) ، والثاني نشره سنة 1905 بعنوان :ما هي البراجماتية ؟ (What Pragmatism is) ، وفي إمكاننا القول أن هذا المصطلح يعني عنده وصفا من وجهة نظر عملية إلى الحد الذي تنتهي فيه عن نقل ما هو فعلي ، أو الوصف الذي يجعل أثر الأشياء عملية في تصوراتنا ، و على هذا الأساس فهو كل شيء

لتصوراتنا عن هذه الأشياء .

وجاء بعده الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس فحول هذه النظرية إلى الحقيقة ؛ والنظرية الحقة ه١٠ه ٠ هي النظرية التي تقودنا للوصول إلى نتائج ، ومن خلالها تتم إنتاجية الأفعال من الأفكار ، وهي أيضا نظرية تؤدي إلى نتائج مرضية ، وهاتان نظريتان ـــ كما نلاحظ ـــ غير متكافئتين ، والأولى تضع الحقيقة مع الصدق الفعلي ، والثانية تضعها مع اليسر ، وفي المعنى الأخير فإن ديوي (1859-1952) طور النظرية وأتجه بها نحو "الوظيفية" أو "الأداتية" للتفكير : لأن الفكرة هي فرضية الفعل ، و تقودنا وحدها فعليا نحو الحقيقة [6] .

وقد عرفها ديوي في قاموس القرن 1909بأنها" النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة وأدواتها إنما تتحدد بحسب الاعتبارات العملية أو الأغراض الفعلية ، فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحدد في حدود الاعتبارات النظرية التأملية الدقيقة أو الاعتبارات الفكرية المجردة " [7] .

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار ها نظرية في "المعنى" ،وهذا ما نلاحظه في محاضرات جيمس عن البراجماتية ، ويهمنا في هذا المقام سرد القصة التي حدثت له " حينما كان مع نفر من رفاقه في نزهة في الجبال ، فقد عاد من جولة منفردة ليجد الجميع منغمسين في مجادلة ميتافيزيقية حامية الوطيس ، وكان موضوع المجادلة سنجابا حيا من المفروض أن يكون متعلقا بأحد جوانب جذع شجرة ،بينما يقف في الجانب المقابل للشجرة إنسانا تخيلوا أنه يحاول أن يبصر السنجاب بالدوران بسرعة حول الشجرة ، ولكنه مهما أسرع في حركته فإن السنجاب يتحرك بنفس السرعة في الاتجاه المضاد ، ويحتفظ دائما بالشجرة سدا منيعا بينه وبين الرجل بحيث لم يستطع أبدا أن يلمحه . فكانت المشكلة المتافيزيقية هي : هل يدور الرجل حول السنجاب أم لا . إن الرجل يدور حول الشجرة ما في ذلك

ريب،والسنجاب على الشجرة ، ولكن هل يدور الرجل حول السنجاب ؟ لقد انقسموا إلى فريقين متساويين ، أصر كل فريق على رأيه بعناد ، والتمس كل فريق من جيمس أن ينضم إليه ليرجح كفته . فقال لهم : " إن صواب أي فريق على "ما تقصدون عمليا " بعبارة " الدوران حول" السنجاب . فإن كنتم تقصدون العبور من شماله إلى شرقه ،ثم إلى جنوبه ثم إلى غربه ثم إلى شماله ثانيا ، فمن الجلي أن الرجل يدور فعلا حوله ، لأنه يحتل هذه المواقع المتتابعة ،ولكن إذا كنتم تقصدون بإن الرجل يكون أولا أمامه ثم يمينه ثم من خلفه ثم عن يساره ،ثم أمامه مرة أخرى ،فمن الجلي أن الرجل يخفق في الدوران حوله .إذ بالحركات التعويضية التي يتحركها السنجاب ،فإنه يظل محافظا على بطنه من ناحية الرجل طوال الوقت ، وعلى ظهره مدبرا عنه ."فكلا الفريقين مصيبان ومخطئان طبقا لما يدركونه من الفعل ."يدور حول " بطريقه عملية أو بأخرى .

وهنا تبدو البراجماتية وكأنها نظرية تتعلق بتحديد معاني الألفاظ و العبارت ؛ ولكنها في جميع الحالات تعامل المداليل اللسانية انطلاقا من مجموعة من النظريات المعرفية والتواصلية ومنها نظرية الصدق والتطابق (تشبه قضية الصدق والكذب في الأساليب الخبرية في البلاغةالعربية) والاتساق ، وهذا ما صاغه بيرس ، وكانت تطبيقاته ذات أهمية :مثل الربط بين المعنى والتوقعات العملية ، وأي فكرة لا تحمل هذه التوقعات فلا معنى لها ، وإذا استخدمت فكرتان منفصلتان ولهما نفس التوقعات فإنهما في الواقع فكرة واحدة [8] .

2.1. التداولية والدراسات اللسانية :

تعزى بصفة عامة قضية تحديد التداولية بكونها حقل نوعي لدراسة اللغة إلى شارل موريس في بحثه : تأصيل نظرية العلامات (Fondation of the theory of Signs 1938)، ويكفيه فضل أنه حدد موقع التداولية بالنسبة للمكونات الأساسية

ريب،والسنجاب على الشجرة ، ولكن هل يدور الرجل حول السنجاب ؟ لقد انقسموا إلى فريقين متساويين ، أصر كل فريق على رأيه بعناد ، والتمس كل فريق من جيمس أن ينضم إليه ليرجح كفته . فقال لهم : " إن صواب أي فريق على "ما تقصدون عمليا " بعبارة " الدوران حول" السنجاب . فإن كنتم تقصدون العبور من شماله إلى شرقه ،ثم إلى جنوبه ثم إلى غربه ثم إلى شماله ثانيا ، فمن الجلي أن الرجل يدور فعلا حوله ، لأنه يحتل هذه المواقع المتتابعة ،ولكن إذا كنتم تقصدون بإن الرجل يكون أولا أمامه ُم يمينه ثم من خلفه ثم عن يساره ،ثم أمامه مرة أخرى ،فمن الجلي أن الرجل يخفق في الدوران حوله .إذ بالحركات التعويضية التي يتحركها السنجاب ،فإنه يظل محافظا على بطنه من ناحية الرجل طوال الوقت ، وعلى ظهره مدبرا عنه ."فكلا الفريقين مصيبان ومخطئان طبقا لما يدركونه من الفعل ."يدور حول " بطريقه عملية أو بأخرى .

وهنا تبدو البراجماتية وكأنها نظرية تتعلق بتحديد معاني الألفاظ و العبارت ؛ ولكنها في جميع الحالات تعامل المداليل اللسانية انطلاقا من مجموعة من النظريات المعرفية والتواصلية ومنها نظرية الصدق والتطابق (تشبه قضية الصدق والكذب في الأساليب الخبرية في البلاغةالعربية) والاتساق ، وهذا ما صاغه بيرس ، وكانت تطبيقاته ذات أهمية :مثل الربط بين المعنى والتوقعات العملية ، وأي فكرة لا تحمل هذه التوقعات فلا معنى لها ، وإذا استخدمت فكرتان منفصلتان ولهما نفس التوقعات فإنهما في الواقع فكرة واحدة [8] .

2.1. التداولية والدراسات اللسانية :

تعزى بصفة عامة قضية تحديد التداولية بكونها حقل نوعي لدراسة اللغة إلى شارل موريس في بحثه : تأصيل نظرية العلامات (Fondation of the theory of Signs)، ويكفيه فضل أنه حدد موقع التداولية بالنسبة للمكونات الأساسية

للغة التي أصبحت عنده تضم "ثلاثة أقسام هي :(علم التركيب وعلم الدلالة وعلم التخاطب[أو التداولية]) ، وقد حدد التدولية بأنها (دراسة علاقة العلامات بمفسريها) ، ثم عمم هذا التعريف ليصبح (علاقة العلامات بمستخدميها) ،ثم حددها رودولف كارناب بعده بسنة من ذلك التاريخ بأنها (حقل البحوث التي تأخذ في اعتبارها نشاط الإنسان الذي يتكلم أو يسمع العلامة اللغوية ، وحالته ، ومحيطه) ، وعرفها آخرون بأنها "دراسة استخدام اللغة ، وعلاقتها ببنية اللغة والسياق الاجتماعي" ، وأعطانا أ.ج . سميث (A.G. Smith) تحديدا مهما لمجالات المستويات الثلاثة اللغوية فكانت الدراسات التركيبية معنية بالكيفيات التي تتعلق العلامات بعضها ببعض ،والدلالية بكيفيات علاقة العلامات بالأشياء ،والتداولية بكيفيات علاقة العلامات بالناس [9].

وقد استمر هذا التقليد لدى اللغوين والفلاسفة حيث نظروا إلى مصطلح (علم التخاطب) [أو التداولية] على أنه يشمل دراسة استخدام اللغة في علاقته بالسياق ، لا سيما دراسة الإبلاغ اللغوي؛ لكن يلاحظ أن التقدم الحاسم لهذا المنهج يعود إلى ج .ل . أوستين (J. L.Austin) في بحثه القيم الرائد بعنوان : كيف تجعل من الأقوال أفعالا (How to do things with words) والذي ترجم إلى الفرنسية سنة 1970 ،وتكشف هذه الدراسة على أن الأداء له بعد" غير تعبيري " .

إن أغلب الدراسات الغربية في التداولية اقتربت في تحديد مجالها في جعلها دراسة للكيفيات التي تجعل الخطاب ناجحا ،وتبحث عن الوجه الأمثل لجعل التفاعل عنصرا أساسيا فيه ،ومن ثم الوصول إلى تحديد المبادئ الأساسية التي تضمن هذا النجاح باستمرار ،كما تضمن الشروط اللازمة لأسس هذا التفاعل بين الخطاب وتفسيره ،والكشف عن نظام التواصل وأطرافه مثل : المرسل والمستقبل

للغة التي أصبحت عنده تضم "ثلاثة أقسام هي :(علم التركيب وعلم الدلالة وعلم التخاطب[أو التداولية]) ، وقد حدد التدولية بأنها (دراسة علاقة العلامات بمفسريها) ، ثم عمم هذا التعريف ليصبح (علاقة العلامات بمستخدميها) ،ثم حددها رودولف كارناب بعده بسنة من ذلك التاريخ بأنها (حقل البحوث التي تأخذ في اعتبارها نشاط الإنسان الذي يتكلم أو يسمع العلامة اللغوية ، وحالته ، ومحيطه) ، وعرفها آخرون بأنها "دراسة استخدام اللغة ، وعلاقتها ببنية اللغة والسياق الاجتماعي" ، وأعطانا أ.ج . سميث (A.G. Smith) تحديدا مهما لمجالات المستويات الثلاثة اللغوية فكانت الدراسات التركيبية معنية بالكيفيات التي تتعلق العلامات بعضها ببعض ،والدلالية بكيفيات علاقة العلامات بالأشياء ،والتداولية بكيفيات علاقة العلامات **بالناس** [9].

وقد استمر هذا التقليد لدى اللغوين والفلاسفة حيث نظروا إلى مصطلح (علم التخاطب) [أو التداولية] على أنه يشمل دراسة استخدام اللغة في علاقته بالسياق ، لا سيما دراسة الإبلاغ اللغوي؛ لكن يلاحظ أن التقدم الحاسم لهذا المنهج يعود إلى ج .ل . أوستين (J. L.Austin) في بحثه القيم الرائد بعنوان : كيف تجعل من الأقوال أفعالا (How to do things with words) والذي ترجم إلى الفرنسية سنة 1970 ،وتكشف هذه الدراسة على أن الأداء له بعد" غير تعبيري " .

إن أغلب الدراسات الغربية في التداولية اقتربت في تحديد مجالها في جعلته دراسة للكيفيات التي تجعل الخطاب ناجحا ،وتبحث عن الوجه الأمثل لجعل التفاعل عنصرا أساسيا فيه ،ومن ثم الوصول إلى تحديد المبادئ الأساسية التي تضمن هذا النجاح باستمرار ،كما تضمن الشروط اللازمة لأسس هذا التفاعل في الخطاب وتفسيره ،والكشف عن نظام التواصل وأطرافه مثل : المرسل والمتلقي

والرسالة وسياق الحال [10] .

ولا تتكشف قضايا التدولية إلا بالارتباط بين المعنى والوظيفة ؛ وعلى سبيل المثال ليكن الملفوظ : هل أستطيع مساعدتك ؟ وسيكون المقصود منها أداء جملة استفهامية ، بدءا من وجهة نظر المستوى التركيبي (قواعد التأليف ، والرموز اللغوية) ، بحيث يلاحظ توسيمها بصدارة أداة الاستفهام ، والدلالة تفسر رموز اللغة بوضعها في علاقات مع شيء آخر قد يكون الحقيقة الواقعية أو تأليفات أخرى لرموز هي التي " تعطيه " معنى من المعاني . و يمثل ذلك عملية مساعدة خارج السياق والظرف ؛ويعنى ذلك أن السياق والظرف الذي قيل فيه هذا الملفوظ يبقي على المعنى الاستفهامي لهذه الجملة ، ولكن يمكن له أن يأخذ معنى خاصا مثل قول القائل : (يبدو أن هذه الحقيبة التي أحملها ثقيلة) . هل أستطيع مساعدتك (في حملها) ؟ أو قولك : يبدو أنك تبحث عن شيء ، هل أستطيع مساعدتك (= أتسمح بإعطائك بعض المعلومات) ؟ والتداولية التي تحدد الاستعمال بإمكانها أن تقدم أشكالا للتخاطب ، وتبين أن لهذا الملفوظ وظيفة في التواصل ، ويكتسبها من المرسل زمن إنتاجها ، وتكون مجرد تحديد ووصف أو تحذير أو أمر .

وهكذا فإن التداولية تدرس العلاقات بين مستعملي العلامات(الباث والمستمع،أو الكاتب والقارئ)،ونتائج خضوع العلامات لتركيب له تفسير دلالي .

وعلى الرغم من تطور النظرية الدلالية فإنها كما يقول صاحبا كتاب علم الدلالة :" ما زالت بعد لم يوجد لها انتظام بنيوي لميدانها الإجمالي "[11].

ومن جهة أخرى فهي تعني تعدد المعاني ، و تجعل الكلمة تقبل في سياقها كل ما هو غير لساني كالثقافة والمعرفة الموسوعية ، وجو الخطاب ، وأنظمة المعارف والاعتقادات ،كما يندرج أيضا ضمن التداولية مستعملي العلامات، وسمات الأداء

، والسياق الظرفي ، والأفعال غير المعبر عنها ، والملفوظات المنجزة ، والافتراضية .

و في لحقيقة فإن هناك تداخل بين علم الدلالة والتداولية ، وهذا التداخل لا يمنع من التمييز والاختلاف بينهما ، وفي هذا الصدد فقد أورد صاحبا كتاب علم الدلالة ما قال به بريكل (Brekle) في التمييز بينهما من خلال هذا الخطاب " في صباح يوم من الأيام تلقيت إنذار من مصلحة الضرائب . "لقد فهمت " محتوى هذا الإنذار بكونهم يلحون علي بدفع ضريبة تقدر بـــ 600ف ، وهذا الفهم مربط بظروف النص ، هذا من مظاهر الدلالة ، ولكن فهم محتوى هذا النص يرغمني أن لا أتركه إلا بمعرفة القواعد التداولية التي تتضمن مثل هذا الإنذار ، والتي يفرض علي أن أدفع هذا المبلغ ، وعلى هذا الأساس تبدو تداولية نص مرتبطة أكثر بالنظام المالي الجزائري للمجتمع ،وهذا هو التفسير التداولي [12] .

وهذا الجوانب التداولية التي تتجاوز في معناها حدود علم الدلالة ناقشها بشكل أكثر إلماما بإشكالياتها "جون لايتز" في كتابه (اللغة والمعنى والسياق) وبخاصة في فصل "الأقوال و الأفعال" ،فهو مثلا يلم بجوانب فعل "يقول" الذي "يعني من ناحية "ينطق" بصورة عامة أو "يؤدي عمل كلاميا " على نحو أكثر تقنية . فالقول حسب هذا المعنى للفعل يقول يتضمن أنواع ثلاثة مختلفة من العمل :

1ـــ فعل انتاج النقش .

2ـــ فعل تكوين الجملة .

3 ـــ فعل وضع تلك الجملة في سياق معين . [13]

ننتقل إلى مظهر آخر من الدراسات اللسانية والأسلوبية التي تستفيد من النظرية التداولية والتي ستتفاعل في جذورها مع حقائق منهج الدراسات اللسانية السوسيرية ، ولا عجب في ذلك فقد نشأت كل النظريات من الدراسات اللغوية الحديثة وفلسفاتها ونظرياتها ومناهجها ومنها النظرية التداولية التي استفادت

من الحقائق العملية لمايعرف بتحليل الأداء للكلام الذي طوره بنفونيست من وجهة النظر اللسانية التي ستستفيد منه الدراسات اللغوية والأسلوبية والنقدية من وجهة النظرية التداولية بصفة خاصة على النحو الآتي :

أ ــ نحو تحليل الأداء .

لقد رأينا أن التمييز السوسيرى بين اللغة والكلام وجه وطور الأبحاث اللسانية في طريق متميزة أدت إلى استثمار بعض الأدوات المنهجية البداغوجية . لكن طبيعة هذا التقسيم قاد إلى وضع لسانيات الكلام التي ستتأسس عليها الأسلوبية الحديثة في مظهرها التداولي .

ولقد نشأت بفضل اللساني أميل بنفونيست منذ الستينيات لسانيات الأداء ــ التي ستعمق المنهج الأسلوبي التداولي في مقارباته لأنواع الخطاب في مقاصده وبنياته وآثاره وبخاصة أنماط السرديات وأساليبها ــ وكان يقصد منها بلوغ فعل الكلام في الوقت الذي يختار فيه الفرد لغة ،وقد حاول بنفونيست تجاوز الفصل بين اللغة والكلام بدراسة كيفية جعل الكلام تمرن خاص لإدراك الذات المتكلمة للغة .

وقد قال عن ذلك بنفونيست : "هناك فرق عميق بين اللسان بوصفه نظاما من العلامات ، واللسان بوصفه تدريبا للأفراد ، وحين يملكه الفرد ينقلب في اللحظة إلى خطاب "[14] .

وكما نلاحظ فإن بنفونيست عوض تصور الكلام بتصور الخطاب ؛ولا يخفى أن التمييز بين اللغة والخطاب يخضع لنشاط المتكلم ،ومن ثم يقود إلى بناء ممن للغة ،ويتوقف عند هذا المسعى .

أما التمييز بين اللغة والخطاب فيحاول دراسة النشاط الذي يحول اللغة إلى خطاب ، ويضعها في استعمال وفعل ؛ وهذا التمييز يؤدي إلى تصور نظرة جديدة للنص ، وهذا النص يمكن اعتباره من وجه آخر بكونه متوالية إحصائية للعلامات

ضرورية لفعل الأداء ، هذه المؤشرات تغطي ضمائر المتكلم والمخاطب والظروف والصيغ الظرفية . وهكذا فإن ضمير "أنا" الشخصي المتلفظ لا يستطيع شكله اللساني تعيين معناه إلا في فعل الأداء الذي يتضمنه .

ج ــ المناويل الشكلية للأداء :

وإذا كانت مسؤولية بعض أصناف العلامات "المؤشرات" بهذه الصورة فإن الأداء يقدم عوامل ضرورية إلى الوظائف الكبرى التركيبية ،وفي الواقع فإن المتكلم يكيف اللغة بطريقة نوعية بواسطة الاختيار الذي ينجز في كنف الأصناف التركيبية و المناويل ، وزيادة على الشكل الذي يفرض نفسه ،فإن الأداء يعطي شروطا ضرورية للوظائف التركيبية الكبرى ويقدم نمطين للأداء : النمط الحكائي والنمط المقالي أو الاستدلالي وحين يتحقق الأداء ــ بحسب بنفونيست ــ يبدو واحدا من " الأفعال السرية ، وبفضلها تصبح اللغة متحققة بكلام متحدث" ، وفي هذه الحالة يصبح كل معبر باللغة محقق لها من وجهتين :

فهو إما أنه يحاول أخذ الأحداث التي يريد تقديمها بدقة ، واستبعاد كل تدخل شخصي ، وإما بالعكس يقدمها بوصفه معبرا عنها ، ومنظما نصه في المقولات الشخصية ؛ وبوجه آخر يمكن القول : يوجد مسلكين لامتلاك اللغة سواء بالعرض بـــوصفه "أنا" أو بوصفه "إن كان "والأحداث تحكي نفسها بنفسها ، و النظام الزمني منظم حول فعل الماضي " passe simple"ويخفي المعبر عنه ، والنظام الآخر منظم حول الفعل الماضي المستمر المسبوق بفعل الكينونة " passe compose" الذى يأخذ مخطط الأداء دور الكاشف للمعبر عنه .

وهكذا فإن بنفونيست ميز بين الأداء الحكائي ، وأداء الخطاب . وفحص كيفيات التمييز بينهما .

ونشير إلىأن بنفونيست قد أكد على أن هذا التمييز لا يتوافق مع التضاد المعتاد

بين اللغة المكتوبة و الشفوية ،وفي الوقت نفسه يلح على التداخل بين نمطين من الأداء في أفعالنا الكلامية ؛وهذا التلاقي بين الخطاب والحكاية نستطيع ملاحظته في استعمال الماضي البسيط في صيغة الشخص الأول . وبنفونيست أشار إلى أن الماضي البسيط يظهر في الحكاية ،ومع صيغة الشخص الأول في الخطاب .

وهذا التوتر بين نمطي الأداء يفسر تقريبا ندرة كذا من الأشكال ،لكن استعمالها يكون تداخلا لنمط أداء آخر . ويمكن لنا أخذ هذا السؤال إلى أبعد حد ممكن حين دراسة ظاهرة التكثيف الأسلوبي .

د ــ ترسيمة الأداء :

إن أسلوب الأداء يتمحور حول المتحدث في مواجهة ملفوظه والمحاور والمرجع ؛ وفي هذه الحالة فإن فعل "تحويل اللغة إلى خطاب" يضع الذات المتكلمة في موقف التعبير وفي أثناء ذلك تتمظهر ألوانا من المواقف الحرة وغير الحرة ، والمتحدث يتكلم مركزا دائما على المحاور ، ويتبنى بصفة كلية أو جزئية ما يتكلم عنه ، ويصبح ملفوظه الحقيقي محتملا لهذا الشكل المتعدد في دلالته :

أنا ⟵ الملفوظ

أنا ⟵ المرجع

أنا ⟵ المحاور

هذه الوضعية الثلاثية لـــ "أنا" بالتأكيد مسجلة في الملفوظ نفسه ، ويمكن الكشف عنها بتحليل عدد من السمات اللسانية ؛ وتؤدي أغراضا ــ من أجل تحديد خصائص أسلوب الأداء ــ لبعض المفاهيم التي وضعها جون دي وي .

هـــ ــ النمذجة :

المفهوم ليس جديدا ، والقدامى معتادين على التمييز ــ في جميع أفعال الكلام ــ بين dictum وmodus ، والأول يوافق وضع العلاقة بين المسند والمسند

إليه نحو جاء زيد ومتى جاء زيد ؟ . والثاني يوافق وضع الذات المتكلمة بالنسبة لوضعها الأول ؛ مثل التعبير عن موقف أمل :كم أتمنى حضور زيد .

ولنأخذ هذا التحديد لطرح مفهوم النموذج ، وبالنسبة لهذا المفهوم ننتظر منه أن يؤدي غرضه بكيفية تسمح للمتحدث بأن يكون أهلا عما يتكلم عنه ؛ وفي هذه الحالة يفترض أن كل ملفوظ يتضمن سمات موقف اللافظ فيما يرسله ،ويمكن لنا التمييز بين وضع موقف الذات المتكلمة بالنظر إلى التأكد أو الشك في ما تقوله ؛ ومن هذا يحق لنا الكلام عن النماذج المنطقية ؛ ومن جهة أخرى يمكن لنا تمييز الأحكام التي يصدرها المتحدث بالنظر إلى مظهرها الإيجابي أو السلبي عما يتكلم عنه ؛وهذه تمثل نماذج التقدير أو عدمه ؛ وهي تقرأ في الأصناف اللسانية المستعملة في الخطاب ؛ومثال ذلك الظرف الذي يخبرنا عن نمذجة منطقية أو صيغة تركيبية نحو :"لا يمكن بأن ..." أو الصفة التي تعبر في أحيان كثيرة عن موقف الإعجاب و التقدير أو عدمه . وفحص نماذج من هذا النوع في الخطاب يعمل على إبراز بعده ... وشفافيته ، وهذان يؤديان إلى السماح بإظهار طرق الأداء من وجهة نظر المتحدث في مقابلة ملفوظه ، كما تحدد طرق الأداء ـــ بوصفها موطنا لاختيار العناصر اللسانية ـــ البعد النسبي بين المتحدث والملفوظ .

وفي الواقع فإن حركية امتلاك لغة وتحويلها إلى خطاب ، وفي هذه الحالة فإن فعل الأداء يمكن أن تكون سماته أكثر أو أقل قوة ، والمتحدث يحاول أخذ مسؤولية تضمين ملفوظه على نحو كلي أو جزئ بخصائص الزمان والمكان ، وامتلاك اللغة على هذا النحو سيكون موسوما في الملفوظ باستعمال السمات اللسانية للأداء : الإشارة إلى الأشخاص والمؤشرات ... الخ .

" إن الأداء يحدد على أنه موقف الذات المتكلمة في مواجهة ملفوظها ، و هذا يمثل قسما من عالم الموضوعات .

وسيكون وصف طرق الأداء وشكله بعدا نسبيا بين الذات المتكلمة نفسها وهذا الملفوظ ،ويترجم هذا البعد قواعده وتوزيعه وعناصره المكونة له ، وبتعبير آخر فإن الذي يحاور ليس الذات ولا التجربة ، وإنما الأثر الذي ينقل ويتبنى "[1] .

قال ش . وينر يش : إن بنفونيست التجأ إلى بعض مظاهر التوليفات التركيبية لتنفيذ تقييدات جديدة ، وهي : لا تظهر في الحكاية إلا مشكلة مع الشخص الثالث في المفرد أو الجمع في الماضي البسيط ،والماضي المستمر .

كما أن وظيفة تجلية الكلام بحسب ج. ل. أستين . تقود الدراسة اللغوية بكونها الآن فعلا، . وبكلمة أخرى فالمقصود من تحليل الكلام يفرض هذا السؤال : ماذا أفعل حينما أتحدث ؟

2 ــ التدولية والدراسات الأدبية :

1.2.التداولية والنقد لأدبي :

جاء في كتاب تيارات النقد الأدبي الكبرى الذي صنفه صاحبه اعتمادا **على هيمنة العلاقات** بين أطراف سبعة : النص والمبدع والسياق والغرض الجمالي **والواقع والانفتاح والتواصل** ،ومن ثم تنشأ تيارات نقدية بالنظر إلى العلاقات البارزة **لهذه الأطراف ؛وهي** من السياق إلى النص وينشأ عنها تاريخ الأدب ،والنقد **الاجتماعي الماركسي** ،ومن المبدع إلى النص وينشأ عنها : النقد النفسي **والموضوعاتي** ، **والنص** بوصفه غرضا جماليا :النقد الشكلاني و البنيوي والشعرية **أوالأسلوبية والسيميائية** ، و النص بوصفه انفتاحا : التناص والنقد التكويني . **والنص بوصفه حقيقة** اجتماعية : النقد الاجتماعي ،والنص بوصفه تواصلا : النقد التداولي، ونظرية استقبال النص والقراءة [17] .

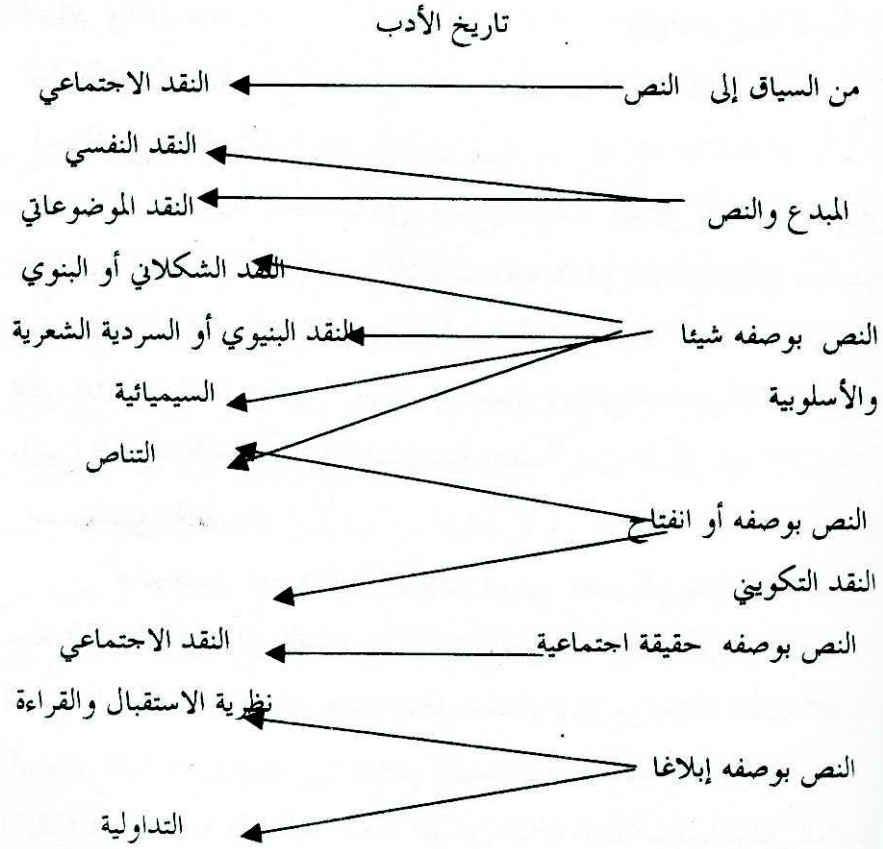

والتداولية تحدد بوصفها منهجا ، وكيفية لمواجهة الفعل الأدبي،فهي تلتقي مع كل المقاربات التي كانت في السابق تقدم في النقد النفسي والاجتماعي [18] .

إن معنى أي ملفوظ يشترك فيه مركبان : المحتوى الموقعي (قيمته التصويرية) وقوته غير التعبيرية،التي تبين نمط فعل اللغة (أو الكلام) الذي لا يكتمل إلا حين يلفظ بالإضافة إلى الكيفية التي يجب أن يستقبل بها ، و بهذا فإننا حين نتكلم لا نوصل غير الفعل مما أردنا تبليغه من فعل إفهام المتلقي الذي يتلقى الأداء .

وفعل اللغة لا يؤدي مهمته كاملا إلا بشرط وقوف المتلقي على مقصديته ومن هذا المنظور فستكون مهمة التداولية دراسة كل ما يمس نجاعة الخطاب في

السياق وأفعال اللغة .

قوة أفكار التداولية :

أ ــ أنواع الخطابات :

إن التداولية تأخذ بشكل واسع لحساب التدليل اللساني ، وكل استراتجيتها توضع في عملية تفسير المحتويات الضمنية التي تتم من المتلقي (بوصفها فرضيات ــ أو تحت الإدراك) ،وتدرس أيضا الأنواع الأدبية ، وهذه الأخير ة لا يمكن اعتبارها طرائق تعبيرية ، ولكن هي جهاز تواصلي محدد بصفة اجتماعية ، وليس بمقدورها النجاح التام إلا ضمن سياق محدد [19] .

ب ــ سنن الخطاب :

هذه السنن تحدد الكفاية التداولية ، وهي المعايير التي يفترض تبجيلها في حالة تأدية لعبة التغييرات القولية ، وأي نوع من هذه السنن هي المسلك الجيد لتلاقي القراءات ؛ وهذا يمثل عقدا اتفاقيا ضمنيا والذي من خلاله قدمت كاترين **كيربرى قائمة إجرائية** هي : مبادئ التضامن ، والملاءمة والصدق ، وقوانين **الإبلاغ ، والشمولية** والنمطية ، وهذه القوانين المقالية ينضاف إليها قوانين السلوك **الاجتماعي: المهيأة من** الآخر ، والمرعية ذاتيا [20] .

والعقد الأدبي تنشأ عنه هذه القوانين انطلاقا من طبيعة النص بوصفه فعل **الأداء ، وعلى هذا** الأساس فإن العمل الأدبي يكون في قمة هذه القوانين نتيجة **الوظيفة الحقيقية للاقتصاد** في الجهد ، وبعلاقاته التي تجعل كل عمل أدبي من نمط **الفعل المؤسس على** الاستعمال غير الأدبي للخطابات . **ج ــ الانعكاسية :**

إن التداولية تسمح بوضع ظواهر الانعكاسية من خلال الخطاب الذي يعكس بصفة واضحة نشاط أدائه ،ويحلل بوصفه تشابكا من المستويات ،لأن الأداء يتداخل مع الملفوظ الذي يرجع بدوره أداء بدل اكتفائه بالحديث عن العالم .

2 ــ تحقيق التداولية :

أ ــ التداولية بكونها أفقا للنقد :

إن التداولية تلح على خصائص تفاعل وانعكاس الخطاب وعلاقاته بالمعايير ، ويسجل هنا الفعل اللغوي ضمن خصائصه .

د ــ النظريات الأدبية الكبرى :

إن م .ش.أبرامس (M .H.Abras) طرح في المدة الأخيرة تصنيفا للنظريات الشعرية ، والتي توافق في الوقت نفسه وصفه لها من رؤية تطورية ، وقد أقام فيما أ سماه بأربعة عناصر مكونة للسياق الأدبي ، وهي :المبدع ، والقارئي ، والأعمال الأدبية ، والكون ، وكل نظرية من النظريات تكون نتيجة هيمنة واحد من هذه الأطراف ، وبهذا التصنيف العام الذي أدخل التداولية وجعلها من التصنيفات الكبرى لتطور النظرية الشعرية ، بل جعلها هي الحلقة الوسطى بين نظرية المحاكاة وغيرها من النظريات التعبيرية والوضعية .

والنظرية الأولى تركز أساسا على العلاقة بين الأعمال الأدبية والكون ؛ وهذه هي نظريات المحاكاة .

وفي القرن السابع والثامن ،تكونت مذاهب تهتم أساسا بالعلاقة بين الأعمال الأدبية والقراء ، وهذه هي النظريات التداولية .

ثم جاءت الرومانسية فركزت أساسا على المبدع وموهبته الذاتية ، وفي هذه الحالة يجوز لنا الكلام على النظريات التعبيرية ، وأخيرا فإن ظهور الرمزية تحت عصر النظريات الوضعية التي تصف الأعمال الأدبية كما هي ، وهذا التقسيم يبقى واضحا ومفهوما ، ولا يتوافق إلا بالنظر إلى التطور المتحقق في إطار الشعرية ،كما أن نظرية أرسطو تبقى تتراوح بين المحاكاة والوضعية[21] .

وهكذا تكون التداولية أحد التيارات لأدبية الكبرى المتميزة باتحاد أسسها

المعرفية والفعلية المبنية على تكامل نظام تواصلها الإبلاغي .

2.2. التداولية والأسلوبية :

قد أصبحت النظرة إلى الخطاب وأسلوبه لا تكون متكاملة إلا بإدخال النظرية التداولية ضمن تفسير الفاعلية التي تتم فيها عمليات استعمال اللغة ومكوناتها حين الأداء والتلقي الذي صار يعني كل الظروف والملابسات والأحوال والسياقات التي تمت فيها أفعال إنتاج الخطاب وتواصله الشامل الواسع الدائم .

يقول :روبير اسكاربيت بما معناه :يجب أن نضيف إلى تحديدات اللغة والفنون الأدبية تحديد العنصر الذي يصعب تفسيره وهو ما ندعوه الأسلوب .وعلى الرغم من قول بوفون (Buffon) المشهور : إن الأسلوب ليس هو الإنسان فقط بل إنه المجتمع أيضا .

والخلاصة أن الأسلوب بهذه الصفة يكون رابطة له أصوليته – الاتباعيات- وله انشقاقاته الخلاقة التي تعتمد عليه ؛وتبين التجربة بأننا نستطيع أن نؤرخ أو أن نحدد نصا دون أن نعرف مؤلفه وذلك بفضل تحليل الخط وبنية الجملة واستعمال أقسام الكلام ونوع الموضوع والاستعارات وبوجه عام المتطلبات الجمالية الكبرى للمحيط والتي نستطيع أن نسميها اللياقات ؛ و مهما بلغت عبقرية الكاتب الخلاقة فبإمكانه الاختلاف عن غيره ،ولكنه لا يمكن له أن يتجاهل متطلبات ذوق بيئته ومن ثم متلقيه ، ولا يمكن أن نفهم بشكل أفضل فوضى الأساليب في القرن السابع عشر في فرنسا – المحذلق والباروكي والهزلي والسحري – إلا إذا نظرنا بوضوح أكثر إلى الجماهير المختلفة التي هي أساس كل ذلك . إذ لا يختلف الناس في ثقافتهم أو لغتهم أو مذهبهم فقط ولكنهم فوق ذلك يؤلفون جماعات وفرقا وزمرا لكل منها بيئته وأسلوبه ، بل و جمالياته [22] .

وهذا الفهم المتكامل لمكونات أسلوب أي خطاب لغة وأداء وتواصلا

وسياقا يقربه من النظرية التداولية ؛بل إنها أصبحت في الأسلوبية السيميائية من الأطراف الثلاثة التي يتحقق بها هذا المنهج المتميز الذي يعد من أكمل المناهج الأسلوبية وبخاصة عند واحد من أهم أقطابه ،وأعني بذلك هنريش بليث الذي يدمج كل العناصر في النموذج التواصلي المستوعب لجهود القدامى والمحدثين وبخاصة تصنيف ش . موريس الأمر الذي سهل عليه التمييز بين الانزياحات الأسلوبية الثلاثة التركيبية (العلاقة بين الدلائل)،والدلالية (العلاقة بين الدليل والواقع) ، والتداولية (العلاقة بين الدليل والمرسل والمتلقي)[23] .

وهذا الباحث بترعته التأصيلية يحاول الكشف عن أبعاد التداولية وأثرها في البلاغة القديمة ويحصرها في" ثلاثة أنماط أساسية من المقصدية ، واحد منها فكري ، واثنان عاطفيان ، أحدهما معتدل ، والثاني عنيف (انفعالي أو تهييجي) .

1 ــ المقصدية الفكرية: وتضم مكونا تعليميا ومكونا احتجاجيا،ومكونا أخلاقيا.وليست هذه المكونات مفصولة بعضها عن بعض،بل إنها متداخلة على الدوام.

أ ــ الغرض التعليمي : ويهتم بإخبار المتلقي بواقع ما دون استدعاء العواطف ويتولاه الجانب الإخباري من الخطاب ، كما يقوم به أيضا كل تقديم موضوعي (كما في النصوص العلمية والاخبارية).

ب ــ الغرض الحجاجي : ويتمثل في جعل موضوع الخطاب ممكنا بالرجوع إلى العقل . ويمكن أن يتحقق هذا الغرض بالحجة المادية (الحجة غير الصناعية) المعتمدة على الوقائع الموضوعية (العقود والشهادات) ، وعلى الخلفية العامة المكونة من آراء المجتمع (ما يهم الأخلاق مثلا) ، ويتحقق هذا الغرض من جهة أخرى بالحجة المنطقية وشبه المنطقية (الصناعية) ، التي تسير من الخاص إلى العام (الاستقراء) ، أو من العام إلى الخاص (الاستنباط) ، والغرض من ذلك جعل غير المحتمل محتملا ، وغير الأكيد أكيدا .

ج ــ **الغرض الأخلاقي** : ويتعلق بتعليم المستمع في مجال الأخلاق ،ويتضمن عناصر تعليمية واحتجاجية كما يتضمن دعوة إلى العقل...

2 ــ وللمقصدية العاطفية المعتدلة مكونان : مكون غائي ، ومكون غير غائي ، وهما معا ينتجان انفعالا خفيفا (التعاطف مثلا) يحمل اسم إيطوس (éthos)...

أ ــ **غرض المكون الغائي** : هو اقناع الجمهور بواسطة الإيطوس ، ولذلك ينبغي أن يكون هدف الاقناع خارج النص(شراء شيئ مثلا) ، يظهر في مدخل الخطاب، وكذا جميع النصوص الأخلاقية (مثلا الكوميديا ، والنص الإشهاري) .

ب ــ**وغرض المكون غير الغائي** هو المتعة الجمالية للجمهور،وغياب العزم أو النية...

3 ــ **مقصدية التهييج** : وتكمن في البحث عن الانفعالات العنيفة (الحقد ، الألم، الخوف)التي تسيطر على الجمهور ...[24]

3.2. السردانية السيميائية والتداولية :

حددها كريماس من خلال فحصه للخطاب السردي وأدى به إلى التمييز في المستوى السطحي بين البعد الإدراكي والبعد التداولي هذا الأخير يخدم بأي شكل من الأشكال المرجع الداخلي لذلك . والبعد التداولي معترف به في السرد ، ويرتبط بصفة مجملة بالأوصاف التي من خلالها تصنع دوال السلوكات الجسدية ، وتنتظم في البرنامج السردي ، ويأخذها المتلفظ بوصفها أحداثا تكون مستفذة عادة في استعمالها عن مستوى التعرف ؛ والأشياء التداولية يعترف بها بوصفها قيم وصفية (مثل الأشياء المكتترة أو المستهلكة) ، بواسطة علاقة التضاد في قيم المناويل ؛ وبهذا المعنى فإن التداولية يمكن ادماجها في الوظيفة الثالثة لــ ج دومزيل (G. Dumézil) .

وبمراعاة هذه الوظيفة يمكن لنا التمييز بين بصفة تلازمية بين الفعل

الإدراكي والفعل التداولي ؛ أو بين الذات الإدراكية والذات التداولية ،كما نميز بين الملكة والإنجاز الإدركي والتداولية [25] .

هذه بعض النظريات والمظاهر الخاصة بالتداولية بكونها تمس كل النشاط الإدراكي العملي الإنساني للرسائل المختلفة التي يشكلها في مقامات وحالات منوعة بحسب أطراف التواصل وفاعليتها ، والوجوه المثلى للبنية التي تقبل التفسير ضمن هذا الكل المعقد وتركيبه .

المراجع

ـ بيار غيرو ، السيمياء ، ترجمة أنطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط1 ، 1984م.

ـ روبير اسكاربيت ، سوسيولوجيا الأدب ترجمة آمال أنطوان عرموني ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط1 ، 1978م .

ـ سمير أبو حمدان ، الإبلاغية في البلاغة العربية،منشورات عويدات الدولية ، بيروت ، ط 1 ، 1991م .

- عبد السلام لمسدي ، قاموس اللسانيات ، الدار العربية للكتاب ،تونس 1984م ، ص : 193 .

ـ كاترين فوك وبيارلي قوفيك ، مبادئ قضايا اللسانيات المعاصرة ، ترجمة المنصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984م ، ص : 170.

ـ جون لايتز ، اللغة والمعنى ولسياق،ترجمة يونيل عزيز ، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ،ط1،1987م .

ـ محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،ط2 ،1986م .

- محمد مهران رشوان ، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ط2 1984 .

- محمد مهران رشوان ، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة،دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة (ط2)، 1984م.

- محمد محمد يونس على ، وصف اللغة العربية دلاليا ، منشورات الفاتح طرابلس ، 1993 م .

- ستيفن بليث ، البلاغة والأسلوبية ، ترجمة : محمد العمري ، دار سال، الدار البيضاء المغرب (د.ت) .

ـ يوسف الصديق ،المفاهيم والألفاظ في لفلسفة الحديثة ،الدار العربية للكتاب تونس paris .1986.

–S . Auroux . Dictionnaire des Auteurs et des thémes de la Philosophie .Hechette

– C. Baylon . P. Fabre . La Sémantique . Univesite Nathan . Paris1978 P 55.

E . Benveniste, Probleme de linguistiqe geneerale 1 , paris , gallimart , 1966 .

J. Dubois, Enonce et Enonciation ,in langages , n 13 ,

– G. Gengembre .Les Grands courant de la Critique Littéraire .Seuil Paris .1996.

O .Ducrot / T. Todorov .Dictionnaire encyclopedique des sciences du langage editins Seuil .Paris .1972 .

–A.J.Greimas. J. Courtés . Sémiotique Dictionnaire du Langage .Hachette Paris .1979.

R. Jacobson , Essais de linguisti[1]que Generale , paris , ed , de menuit .

الهوامش

(1) – محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،ط1986،2 ، ص :

(2) – عبد السلام لمسدي ، قاموس اللسانيات ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1984 ، ص : 193، وراجع: يوسف الصديق ،المفاهيم والألفاظ في لفلسفة الحديثة ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ص : 167.

(3) – راجع : محمد محمد يونس على ، وصف اللغة العربية دلاليا ،منشورات الفاتح طرابلس ، 1993،ص : 117-143.

(4) – راجع : سمير أبو حمدان ، الإبلاغية في البلاغة العربية ،منشورات عويدات الدولية ،بيروت ، ط1 1991 م، وينظر إلى الأسلوب على أنه موطن الإبلاغية ، ويعتمد على البلاغيين الذين يقتربون لفهمهم لوظيفة الأسلوب من نظرة السيميائيين التداوليين ص25-34، وقد عنى بها المصنف عاشور في ملحق خاص بالمصطلحات مقابلها في اللغة الفرنسية (Foncion de Communication) راجع مبادئ قضايا اللسانيات المعاصرة لكاترين فوك وبيارلي قوفيك ،ترجمة المنصف عاشور ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 ، ص :170 .

(5) – محمد مهران رشوان ، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة (ط2) 1984 ، ص : 41 .

(*) – يعد بيرس المؤسس الفعلي لعلم العلامات أو السيميوطيقا ،راجع بيار غيرو ، السيمياء ، ترجمة أنطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط1 ، 1984، ص : 6 .

-S . Auroux . Dictionnaire des Auteurs et des thémes de la Philosophie .Hechette paris .1984 .p 230

(7) – محمد مهران رشوان ، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ط2 1984 . ص : 41 .

8–محمد مهران رشوان ، مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ، ص : 42-43 .

9 – محمد محمد يونس على ، وصف اللغة العربية دلاليا ،منشورات الفاتح طرابلس ، 1993 ، ص : 11

10 – محمد محمد يونس علي ، وصف اللغة العربية دلاليا ، ص : 118.

– C. Baylon . P. Fabre . La Sémantique . Univesite Nathan . Paris1978 P 55.

– C. Baylon . P. Fabre . La Sémantique . Univesite Nathan . Paris1978 P56.

[13] – جون لايتز ، اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة ، يونيل عزيز ، دار الشؤن لثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 1987 ، ص : 202 .

[14]- E . Benveniste, Probleme de linguistiqe geneerale 1 , paris , gallimart , 1966 , pp.254-255. (3)

[15]– E . Benveniste, Probleme de linguistiqe geneerale 1 , paris , gallimart , 1966 , p 254 (1) و

[16]- R. Jacobson , Essais de linguistique Generale , paris , ed , de menuit , p . 178. (2)

J. Dubois, Enonce et Enonciation ,in langages , n 13 ,p.104. (1)

[17] – G. Gengembre .Les Grands courant de la Critique Littéraire .Seuil Paris .1996.p4-64.

[18] – G. Gengembre .Les Grands courant de la Critique Littéraire .Seuil Paris .1996.p 61.

[19]– G. Gengembre .Les Grands courant de la Critique Littéraire .Seuil Paris .1996 p 61.

[20] – G. Gengembre .Les Grands courant de la Critique Littéraire .Seuil Paris .1996 p 62 .

[21] -O .Ducrot / T. Todorov .Dictionnaire encyclopedique des sciences du langage . editins Seuil .Paris .1972 .p109.

[22]– روبير اسكاربيت ، سوسيولوجيا الأدب ترجمة آمال أنطوان عرموني ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط1 ، 1978 ، ص : 144-145 .

[23]– هنريش بليث ، البلاغة والأسلوبية ، ترجمة محمد العمري ، دار سال ، الدار البيضاء ، المغرب ، (د.ت)، ص : 10 .

[24]– هنريش بليث ، البلاغة والأسلوبية ، ترجمة محمد العمري،دار سال ، الدار البيضاء ، المغرب ، (د.ت)، ص : 17-18 .

[25] – A.J.Greimas. J. Courtés . Sémiotique Dictionnaire du Langage .Hachette Paris .1979 p 288 .